

رقم الدرس ١٠

الجمعة ٢٩-٣-١٤٤٨ هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام المجدد -رحمه الله تعالى-: (باب فضل كتاب التوحيد وما يكفر من الذنوب).
ثم ذكر -رحمه الله تعالى- قول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}.

ثم ساق حديث عبادة، ثم حديث عتبان، ثم حديث أنس -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-.
ثم ذكر: [مسائل]، ومنها [السادسة]: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: (لا إله إلا الله)، وتبين لك خطأ المغرورين].

الشرح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستتر بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد بين الإمام المجدد شيخ الإسلام -رحمه الله- في هذه المسألة، أنه ينبغي أن تجمع النصوص، ويضم بعضها إلى بعض، ولا يكفي أن يقول الإنسان: (لا إله إلا الله)، ولا يراعي ما ورد في هذه النصوص من الشروط والقيود التي ينبغي اعتبارها، ولذلك جاء حديث عتبان بن مالك -رضي الله عنه وأرضاه- مبيناً الشرط المعتبر، وهو شرط الإخلاص في قول (لا إله إلا الله).

فبين الإمام -رحمه الله- أن بعض الإنسان يعتز بالقول، ويترك الإخلاص والتوحيد والبراءة من الشرك، ولذلك قال الله في كتابه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، {قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، فلا يكفي أن يقول الإنسان هذه الكلمة مضيقاً لحقها وحقوقها، ولذلك قال -صلى الله عليه وسلم-: ((فإن الله حرم على النار من قال: "لا إله إلا الله" يبتغي بها وجه الله))، فإذا قال: ((يبتغي))، إذا لابد مع القول أن يكون هناك شرط الإخلاص، وأن يكون هناك الاعتقاد جازماً لمعناها، فيقولها بعلم ومعرفة ويقين وإخلاص ومحبة وانقياد لله -عز وجل-، مع الخلو والبراءة من الشرك.

وهذا لا شك أنه -رَحِمَهُ اللهُ- راعى ما وردَ في التَّنْزِيلِ في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في كلِّ ما يتعلَّقُ بهذه الكلمة العظيمة، وهو أنَّ مجرَّدَ القول باللسان لا يكفي، وهذا معنى قوله: (وتبيِّنْ لك خطأ المغرورين)، فتجد الشخص يقول: (لا إله إلا الله)، وهو يستغيثُ بغير الله، ويستجيرُ بغير الله، ويعتقدُ ما لله في غير الله، وربما لو قلتَ له: (أقسم بالله) لأقسمَ الإيمانَ المغلَّظَةَ، وإذا قيلَ له: (أقسم بفلانٍ وعلانٍ)، فإنه يخافُ ويمتنعُ ويهابُ، وهذا كله يدلُّ على أنَّ البعضَ يغترُّ بهذه الكلمة قولاً مضيقاً لحقِّها وحقوقها.

وهذا ما امتاز به هذا الكتابُ المباركُ من دلالة الناس على ما دلَّت عليه النصوصُ، وأنه لا يكفي أن يغترَّ القائلُ بقول هذه الكلمة.

والعجيبُ أنك إذا أردتَ أن تنصحَ أحداً أن يقومَ بحقِّ هذه الكلمة، أو قلتَ له حينما يصرفُ حقاً من حقوق الله لغير الله، إذا قلتَ له: (لا تفعلْ ذلك، وأنَّ هذا من الشِّركِ)، قال: (أنا أقولُ "لا إله إلا الله")، إذاً هناك اغترارٌ بهذه الكلمة، واغترارٌ بقولها، مع إضاعةٍ لحقِّها وحقوقها، فنَبَّه -رَحِمَهُ اللهُ- على ذلك: [أنَّك إذا جمعتَ بينه وبين حديثِ عتبان وما بعده تبيَّنَ لك معنى قول: (لا إله إلا الله)، وتبيَّنَ لك خطأ المغرورين].

[السابعة: التَّنبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عْتَبَانَ]، **[التَّنبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عْتَبَانَ]**: حديثُ عتبان تقدَّم معنا شرحه، وعتبانُ بنُ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- دعا النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان منزله في جهة قُبَاء، أي في عالية المدينة، قُبَاء والعوالي هذه كلها من عالية المدينة، ولذلك قال تعالى: {إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}، فبيَّن أنَّ المدينة فيها عالية، وفيها سافلة.

فدعا النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى طعامٍ صنعَه في بيته، فقال رجلٌ: أين مالكُ بنُ الدُّخشم؟ صحابيٌّ سأل عنه السَّائلُ، فقال آخر: هذا رجلٌ منافقٌ، فعتب النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عليه ذلك وقال: ((أَوَلَا تَرَاهُ قَالَ: "لا إله إلا الله"؟ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مِنْ قَالَ: "لا إله إلا الله" يبتغي بذلك وجهَ الله))، ((فإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ)): ما أعظمَ الإخلاصَ! وما أعظمَ خلوصَ القلب لله -عَزَّ وَجَلَّ-! إذا خلصَ القلب لله نجاً صاحبه من نار الله -عَزَّ وَجَلَّ- إذا قام بحقوق هذه الكلمة، ولم يشرك مع الله غيره، وأدَّى ما لله على الوجه الذي يرضي الله.

((فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لا إله إلا الله" يبتغي بذلك وجهَ الله)): وهذا يدلُّ على أنَّ القول -كما ذكرنا- لا يكفي.

فالإمام المجدد -رَحِمَهُ اللهُ- يشيرُ إلى أنَّ حديثَ عتبان فيه قيدٌ لما تقدَّم في الحديث الذي قبله، وهو حديثُ عبادة بن الصامت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي بيَّن ((أنَّه إذا شهدَ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحُ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، وأنَّ النارَ حقٌّ، أدخله اللهُ الجنةَ على ما كانَ من العملِ))، إذاً ((مَن شهدَ)): لا تُؤخَذُ هكذا، مثل ما يقول البعض: إنَّه ينطقُ بها، الشَّهادة بالاعتقاد في الجنان مع الإخلاص والمحبة والتجرُّد لله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأيضًا النطقُ باللسان، فيقولها بلسانه، ويعتقدُها بجنانه، ويعملُ بمقتضاها بجوارحه وأركانه.

فهو يقول: إنَّ حديثَ عتبان بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يعتبرُ قيدًا لحديث عبادة بن الصامت، وصدقَ وبرَّ -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-، وقد بيَّنَّا هذا وفصلناه أثناء الشرح.

[الثامنة: كونُ الأنبياءِ -عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- يحتاجونَ للتَّنبيه على فضلِ (لا إلهَ إلا اللهُ)]،
[كونُ الأنبياءِ]: وهم صفوةُ اللهِ من الخلق، الأنبياءُ والرُّسلُ صفوةُ اللهِ من الخلق، ومع ذلك يُنبَّهون على فضل كلمة التوحيد: (لا إلهَ إلا اللهُ)، هذا نبيٌّ من أنبياءِ اللهِ كلَّمه اللهُ تكليمًا، واصطفاه على الناس برسالته وبكلامه: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}، وألقى عليه المحبة: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، هذا النبيُّ الكريمُ المصطفى المجتبي يُنبَّه، قال -رَحِمَهُ اللهُ- انظروا إلى علم الإمام المجدد -رَحِمَهُ اللهُ-، ما قال: (يُعَلِّمُ)، كُلُّنَا نُعَلِّمُ، لكن (تُنَبِّه)؛ لأنَّ العلمَ مستقرٌّ عند موسى -عليه السَّلامُ-، لكنه يُنبَّه على هذه الكلمة، وما فيها من المعاني على فضل هذه الكلمة، ((قال: يا ربِّ، كلُّ عبادِكَ يقولونَ "لا إلهَ إلا اللهُ")، فبيَّن اللهُ له -جَلَّ جَلَالُهُ- عِظَمَ هذه الكلمة، وأن لا يتقلَّ معه شيءٌ، كلمةُ التوحيد كلمةُ الإخلاص التي من أجلها بُعثت الرُّسل، ومن أجلها أنزلت الكتبُ، يُنبَّه الأنبياءُ والرُّسل على فضلها، إذا كان الأنبياءُ والرُّسل يُنبَّهون على فضلها، فمن باب أولى غيرهم، فمن باب أولى عامة الناس وخاصتهم من العلماء، كلُّ هؤلاء الخلق كلُّهم محتاجون إلى التَّنبيه على التوحيد، محتاجون إلى التَّنبيه على كلمة الإخلاص.

إذا وجدتَ داعيةً أو متكلِّمًا أو معلِّمًا يُعلِّمُ التوحيد، فأحبَّه من كلِّ قلبك؛ فإنه قد اصطفاه اللهُ لهذه الكلمة العظيمة التي عليها قامت السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ، والتي من أجلها أنزل اللهُ كتبه، وأرسل رسله. ولن تجدَ أحدًا مخلصًا مؤمنًا صادقًا في إيمانه إلا وهو يحبُّ هذه الكلمة، ويحبُّ مَن يُنبِّهه عليها.

ولن تجد أحداً -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- يضيقُ ذرعاً من التوحيد، ومن التنبيه على فضله، ومن التحذير من ضده وهو الشرك، يضيقُ بذلك ذرعاً، أو يمنع الناس من أن يُنبِّهُوا على خطر الشرك أو على فضل التوحيد فاعلم أن في قلبه مرضاً -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ-، ولذلك: {وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، هذا صنيع من لا خلاق له، ممن لا يؤمن بالله ورسوله.

أما أهل الإيمان والتوحيد يحبون التوحيد، ويحبون التنبيه على فضله، ويأمنون بذلك، ويحبون العلماء، وكل من يدعوهم، وكل من يحذرهم من ضده، يعلمون أنه ناصح أمين؛ لأن أعظم نصيح، وأعظم كلمة في النصيح أن تُنبَّه على فضل التوحيد، وأن تحذر من ضده وهو الشرك بالله -عز وجل-. إذا أشرك العبد خاب وخسر، خسر خسراناً مبيناً، فإذا كان لم يُنبَّه على فضل التوحيد، فعلى أي شيء يُنبَّه؟!

هذا نبي الله، هذا صفوته، هذا كليمه، هذا الذي ألقى الله عليه المحبة، يُنبِّهه الله على فضل (لا إله إلا الله)، فما أحوجنا! ما أحوجنا إذا كل كلمة تذكّرنا بفضل كلمة (لا إله إلا الله)! وما أحوجنا أيضاً أن نُنبِّهنا على فضلها أن يستقر هذا الفضل في قلوبنا وفي ضمائرنا، وأن يظهر أثر ذلك على جوارحنا! فتجد المؤمن الموحّد إذا نُبِّه على فضل التوحيد تعلّق قلبه، وتعلّق بالحبّة للتوحيد ودعوة التوحيد، والضد أيضاً كره كل ما ينقره من هذه الكلمة، وكل ما يضاد هذه الكلمة، وكل ما لا يتفق مع هذه الكلمة مما يدعو إليه الشيطان وحزبه، ولذلك المؤمن الموفق يحتاج إلى هذا التنبيه على كلمة (لا إله إلا الله).

نبّه الله -عز وجل- عليها موسى -عليه السلام- أن يُكثر من ذكرها في حياته، وأن يُكثر من ذكرها في هذه الدنيا الفانية، ((قال: علّمني)) يعني سأل ربّه أن يُعلّمه ذكراً ودُعاءً يخضّه به، فدله على كلمة التوحيد؛ لأنّ ليس هناك شيء -كما تقدّم معنا- أفضل من هذه الكلمة، ولا أعظم أجراً ولا أعظم خيراً، ولا أعظم بركة، تعيش مع هذه الكلمة في قرارة قلبك ووجدانك، وتستشعر (لا إله إلا الله)، ولذلك تجد المؤمن الموحّد الذي نُبِّه على فضل (لا إله إلا الله) لا تغيب عنه، فإذا قام ذكر الله -عز وجل- بها، وإذا قعد ذكر الله -عز وجل- بها، وإذا نظر في ملكوت السماوات والأرض وجد شواهداً ودلائلها، فإذا قال اللسان: (لا إله إلا الله) بعد أن اعتقد الجنان بمعنى هذه الكلمة، وجد أمام عينه دلائل هذه الكلمة التي تدل على صدقها، الكلمة التي وصفها الله بقوله: {لَهُ دَعْوَةٌ

الحقّ: على سبيل الاختصاص، فلذلك لما اختصّت هذه الكلمة لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كان فضلها أعظم الفضل، فنسأل الله بعزّته وجلاله أن يجعل لنا من هذا الفضل أوفرّ حظّ ونصيب.

[التّسعة: التّنبية لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنّ كثيراً ممن يقولها يخفّ ميزانها]، **[التّنبية لرجحانها بجميع المخلوقات]**: ولذلك ((لو أنّ السّماوات السّبع))، الله أكبر! ((وعامرهنّ غيري، والأرضين السّبع في كِفّة، و(لا إله إلا الله) في كِفّة، مالت بهنّ (لا إله إلا الله))، إذا كان هذا النصّ يدلّ دلالة واضحة على أنّ (لا إله إلا الله) هي أثقل شيء في الميزان، ولا يمكن أن يُعدّل بها شيء، فما بال أقوام خفّت موازينه؟!

ولذلك تبه بعض العلماء، وتبه الإمام في شرحه إلى أنّ السّبب في ذلك هو القيام بحقّ (لا إله إلا الله) وحقوقها، ولذلك قال بعض العلماء في حديث البطاقة: أنّ الرّجل نُشِرَ له تسع وتسعون سجلاً كلّها ذنوبٌ وسيئات، وجاء بهذا السّجل الذي فيه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، قال بعض العلماء: إنه يحتمل أنّ هذا الرّجل قالها خالصاً مخلصاً من قلبه، وكان في غاية التّصديق لها واليقين بها والمحبة والانقياد والتّسليم، وختم له بخاتمة الخير، ولذلك رجحت على السيّئات، مع أنّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بيّن، وحتى أنّ النّبى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثبتت التّصوص: أنّ الموحّدين ممن يقول: (لا إله إلا الله) يُعَدّون، وأنهم قد تحفّ موازينهم، وقد تغلب سيئاتهم على حسناتهم؛ لأنهم ضيّعوا حقوق هذه الكلمة.

إذاً التّنبية تنبيه عظيم، إذا نطقت بها بلسانك، واعتقدتها بجنانك، فاعلم أنك لا تعتقد شيئاً أسمى ولا أسنى ولا أقدس ولا أطهر من هذه الكلمة، وليس هناك أعظم من هذه الكلمة في معناها في دلائلها: **{كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهِ}**، لاحظ: **{تُؤْتِي أُكْلَهَا}**، معناها أنها لا ينقطع الخير الذي فيها، كلمة عظيمة: (لا إله إلا الله) لا تعدّها الكلمات، ولذلك هي دعوة الحقّ.

ولما سنّ النّبى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لنا أن نقول مثل ما قال المؤدّن، وأن نصليّ عليه -عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام- بعد الأذان، قال: ((ثم سلّوا لي الوسيلة))، وأصبح المأثور والمسنون أن يقول القائل: ((اللّهم ربّ هذه الدّعوة الثّامّة))، قال بعض العلماء: إنها تمت بالتوحيد؛ لأنّ فيها (أشهد أن لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، فهي دعوة تامة.

ولذلك هذا الحديث يدلُّ على فضل هذه الكلمة، وأنها إذا اعتقدها المعتقِد، وقالها بلسانه، وعمل بها بجوارحه وأركانها على أتم الوجوه، كانت له خيراتها وبركاتها على أتم الوجوه وأكملها.

أمَّا إذا تلبَّسَ بالذنوب والمعاصي، واختلطت عليه فقد ضيَّع من (لا إله إلا الله) بقدر ما ضيَّع، ولذلك تحفُّ الموازين وتثقلُ بهذه الكلمة، فتجد العبدُ تُعرَضُ عليه الشَّهْوَةُ، وتُعرَضُ عليه الشُّبْهَةُ، فإذا ذكر هذه الكلمة، ذكر (لا إله إلا الله)، مَنْ خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره؟ فإنه سرعان ما ينكفُّ، ويقولُ بلسان حاله ومقاله: **{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}**.

ولذلك يوسف -عليه السَّلام- لما تهيَّأت له: **{وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}**، **{مَعَاذَ اللَّهِ}**: كلمة التوحيد تحولُ بين الشُّبْهَاتِ وبين الشَّهَوَاتِ، ولذلك تجد أهل الضلال وأهل الهوى وأهل الآراء وأهل البدع بمجرد ما تعتقِد هذه الكلمة تامةً كاملةً، فبأذن الله لا يضرك معها شيءٌ، فهي حجابٌ من الله، وحصنٌ حصينٌ لكلِّ مَنْ أحَبَّها، وقام بحَقِّها وحقوقها.

التَّنبِيَةُ على أَنَّ هذه الكلمة، فإذا تنبَّه وقام بحَقِّها، ثقلَ ميزانه، وإذا ضيَّع هذا التَّنبِيَةَ، ولم يتنبَّه لها، وقال: (لا إله إلا الله)، ثم فعل من المعاصي ما شاء، ثم ارتكب من الذُّنُوب ما شاء، ولذلك تجد المؤمنَ الموحِّدَ الكامل في توحيدِهِ، فيه صفةٌ ما رُزِقها عبدٌ إلا حيلَ بينه وبين الشَّهَوَاتِ والمَحْرَمَاتِ: **{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ}**، خشيةُ الغيب، وخشيةُ الغيب ما تكون إلا إذا كانت (لا إله إلا الله) قد عُمرَ بها القلبُ، ولذلك بمجرد أن تُعرَضَ عليه الشَّهْوَةُ وقلْبُهُ معمورٌ بـ(لا إله إلا الله) كأنها لم تُعرَضَ، **{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}** قالها يوسف -عليه السَّلام-، وأكرمه الله، وأكرم مثواه.

[مع أن كثيراً ممن يقولها يخفُّ ميزانه]: فلذلك هذه الكلمة يقولها الكثيرُ، وتحفُّ موازينهم، والحديث يدلُّ على أنها إذا وُضِعَتْ في الميزان أنه لا يثقلُ معها شيءٌ، كيف يُجمَعُ بين الأمرين؟ يُجمَعُ بين الأمرين، وهذه ميزةُ شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللهُ- فتح اللهُ عليه، كثيرٌ من الأخطاء التي تلبَّسَ بها المتأخرون، ولم يَتَّبِعُوها حتى بعض مَنْ ينتسبُ إلى العلم، القولُ باللسان اغترَّ بها الكثيرُ، ولذلك قال: (المغرورين)، اغترَّ بها الكثيرُ، وضيَّعوا بها حقَّ هذه الكلمة العظيمة، فهو يُتَّبَعُ أيُّما تنبيهٍ، ويذكرُ من خلال نصوص الكتاب والسنة، ما ذكر في هذا السَّفر المبارك، ما ينبغي أن يُتَّبَعَ إلى أن الآيات والأحاديث ينبغي أن تجمعَ مع بعضها، فإذا تأملتَ حديثَ البطاقة جاءك هذا الإشكال: كيف يخبرُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث الصَّحيح أن (لا إله إلا الله) تطيشُ بها صحائفُ

العمر، كل سجل منها مد البصر من الذنوب والسيئات، كلها تطيش، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن العصاة والمذنبين أنهم تخف موازينهم، كيف يجمع بين هذا؟ كيف يجمع بين النصين؟ لا يمكن أن يجمع إلا بأن (لا إله إلا الله) حُدِّع الكثير بقولها، فأضاعوا حقها وحقوقها، وهذا هو الذي ينبغي التنبيه له، وهذا هو الذي ينبغي للمسلم أن يجعله نصب عينيه، أن هذه النصوص لا يؤخذ بعضها، ويترك بعضها، وإنما تؤخذ مجموعة، فإذا نُظِرَ إلى مجموعها فلا يكفي أن يقول: (لا إله إلا الله) مستخفاً بحق هذه الكلمة وحقوقها، عندها يكون الغرور، ولذلك تجد البعض تجده يصرف حق الله لغير الله، وتقول له: (يا هذا، إن هذا هو الشِّرك الذي حرَّمه الله ورسوله)، فيقول: (أبداً، أنا أقول: "لا إله إلا الله")، إذاً هل قام بحقوقها وحقوقها؟ هل راعى لهذه الكلمة ما يجب على من يقولها أن يراعيه من عدم صرف حق الله لغير الله؟ أبداً ما حصل شيء من ذلك، إذاً لم ينتفع بهذه الكلمة، ولن ينتفع، وهذا هو الذي يُعنى به (كتاب التوحيد) أن يُنبِّه النَّاسَ على هذه الغفلة العظيمة والاعتذار العظيم.

والأدهى والأمر: أنك تجد بعض الناس يصرف حق الله لغير الله، فإذا جئت تنصحه تجد من يسوق له ذلك، ويقول له: (أبداً أنت على التوحيد، يا أخي، أنت من أمة "لا إله إلا الله")، أصعب ما في هذه الدنيا صداماً لأهل الحق حينما يأتي النَّاصِحُ الأمين، ويُتلى بمن يسوق للناس ما حرَّم الله ورسوله، وأعظم شيء هو الشِّرك، فتجده تارة يقول: (هؤلاء ما عندهم إلا الشِّرك، هؤلاء ما عندهم إلا مشرك، مشرك، هؤلاء كذا، هؤلاء كذا)، ما عنده إلا اللمز، لكن إن يناقشك في العلم والحقيقة، ما يستطيع، ولذلك دعوة الرُّسل مقارعة الحجة بالحجة ما تجابه؛ لأنها حق، والله يقول: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}**، هم يعلمون أنهم لو ناقشوا فإنه ينتهي التِّفَاشُ بفساد قولهم، لكنهم لا يناقشون، يأتون بالشُّبهات والشُّكوك، ويسوقون للعامة.

ومن أعظم البلاء أنك تجد من ينتسب إلى العلم من يلمز ويهمز أهل الإخلاص وأهل التوحيد، ويقول لهم: (هؤلاء يُكْفِرُونَ النَّاسَ، وهؤلاء، وهؤلاء)، أبداً هذه كلمة لها حق وحقوق، هل هذه الكلمة يكفي أن يقول الإنسان بلسانه، مضيقاً حقها وحقوقها بجَنَانِه وبجوارحه واركانه؟! ولذلك قال الله لنبيه: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}**، **{لَا يَحْزُنُكَ}**، ولذلك بيّن أن هذا الصِّنْفَ ممن يقول باللسان، ويخالف المعتقد في الجَنَانِ، فتجد قلبه لغير الله، واعتقاده منصوباً لغير الله، قد يصرف لغير الله -نَسأل الله السَّلامَةَ-

وَالْعَافِيَّةَ - بالهوى، وقد يصرفُ بأئمة الضلال، وقد يصرفُ بالعادة والتقاليد، بأسبابٍ كثيرة، ولذلك هذه الكلمة عظيمة، ولعظمها لها حقٌ وحقوق، فينبغي ألا يغترَّ القائل بقول هذه الكلمة إذا ضيَّع حقَّها وحقوقها.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: **[العاشر: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَاوَاتِ]**، هذه فوائدٌ مستقاة من السنة التي ذكرها -رَحِمَهُ اللهُ-: ((أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامَرُهُنَّ غَيْرِي))، و((الْأَرْضِينَ السَّبْعَ))، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} كما أخبر في كتابه، {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، فأصبحت السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، فهذا مما اتفق عليه العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، وَالْأَرْضِينَ سَبْعٌ؛ لدلالة الكتاب والسنة، ففي الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: ((مَنْ ظَلَمَ قِيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طُوقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ))، اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ العافية، من ظلم أخاه المسلم واغتصب منه شَبْرًا من الأرض طُوقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ، كيف يُطَوَّقُ؟ البعض يقول: كيف رقبة تسع سبع أرضين؟ نعم تسع؛ لأنَّ الله إذا جعلها تسع تسع، تُمدُّ الرِّقْبَةُ وما تُمدُّ هذا ما يعيننا، يعيننا أَنَّ الخبرَ صَحَّ عن رسول الله، وَأَنَّ الوحيَ جاء عن الله بهذا، فنؤمنُ به ولا نشكُّ ولا نمتري، فأخبر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنها سبع أرضين، وبناءً على ذلك، السماوات سبع، والأرضون سبع خلقهنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- على هذه الصفة.

[الحادية عشرة: أَنَّ لَهُنَّ عُمَارًا]: أَنَّ لِلْأَرْضِينَ عُمَارًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وفيها سُكَّانٌ حَتَّى مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وعامرُ البيت: ساكنه، وعامرُ الأرض: ساكنها، وعامرُ السماء: ساكنها وَمَنْ فِيهَا، فلما قال: ((لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامَرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ)) العطف على ما تقدَّم، فالأرضين لها عُمَارٌ، ولذلك خلق الله خلقًا فجعلهم في الأرض يعيشون، وخلق الله خلقًا فجعلهم في السَّمَاءِ يعيشون، وهذا هو خلقُ الله، وهو أعلم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

ومثل ما ذكرنا أنك **تلاحظُ**: دقة هذا الإمام، إذا قرأت كتابًا فانظرُ إلى استشهاده بالنصوص وطريقة الاستشهاد، تارةً تجد أنَّ المصنِّفَ والعالم لا يزيدُ على النَّصِّ ولا ينقصُ منه.

أولاً: حرصه على كلِّ فائدةٍ موجودةٍ في الآية والحديث أن يذكرها، هذه الطريقة.

بعضُهم يحرصُ على الشَّيْءِ المهمِّ، **وبعضُهم** يحرصُ على أهمِّ المهمِّ، ولذلك تختلفُ طرقُ العلماء وأساليبُهم في استنباط المعاني وعرضها، ولذلك يختلفُ على حسب منهج كلِّ إمام.

ولذلك تجد العجيب في (كتاب التوحيد) أن الخصومة ما تجد أحدًا يأتي ويناقش فيما ذكره الإمام المصنف في استدلاله بالأدلة، وما ذكر من الأحكام والمسائل المستنبطة من الآيات والأحاديث؛ من قوة استنباطه -رحمه الله- واستشهاده، ودقة وضعه للآيات والأحاديث في موضعه -رحمه الله برحمته الواسعة-.

ولذلك هنا تجد المسائل المذكورة، وهذا بالاستقراء والتتبع، ولو ادمنت قراءة الكتاب لوجدت في هذا فوائد عجيبة، يتقيد بما يذكره الدليل، ما يزيد عليه ولا ينقص -رحمه الله-، ولذلك وضع الله فيه البركة، وضع الله فيه الخير، وهذا فضل من الله -عز وجل-، ليس العلم بكثرة الهدى، وليس العلم بالذهاب والمجيء، العلم هو الزوم للنص؛ لأن العالم الذي فيه خشية الله تجد عنده ورعًا، ما يتكلم إلا في حدود النص، لا يزيد ولا ينقص، علم مؤصل مبني على دقة في الفهم، ودقة في الإفهام، وحسن عبارة تدل على المقصود، قد جمع الله له ووفق -فيما نحسب- في هذا الكتاب المبارك -رحمه الله برحمته الواسعة-.

في هذه المسألة يقول -رحمه الله-: [الحادية عشرة: أن هن عمارًا]، وهذا فيه فائدة حينما نقول (أن هن عمارًا)، ويتكلم عن التوحيد وفضل كلمة التوحيد، إذا جاءت النصوص تدل على شيء، فالعلماء الأجلاء لا يتركون هذه الدلالات، وهو يعلم أنك إذا سمعت نصًا من الكتاب والسنة، لا تجعله يمر عليك هكذا، أي شيء يقوله الله ويقوله رسوله -عليه الصلاة والسلام-، تقوله وتعتقد، وتحققه، الآية دلت على أشياء استفد منها، وتجد بعضها يدل في خلق الله، في تدبير الله، وبعضها يدل في مخلوقات الله التي خلقها وتديره لها، وحينما تجد هذه النصوص تستنبط منها هذه المعاني، تجد علمًا صافيًا من الكدر، وتجد علمًا؛ لأن هذا مستنبط من الكتاب والسنة، والمستنبط من الكتاب والسنة والوحي فيه بركة: {كتاب أنزلناه إليك مبارك}، {مبارك}: كثير البركة، فيه المعاني.

لما قال: (أن للأرض عمارًا، وللسماء عمارًا) هكذا كان العلماء، ولذلك تجد أهل الإسلام فيهم ثقافة، وفيهم علم أكثر من غيرهم؛ لأن عندهم نصوص من الكتاب والسنة، والطفل يقرأ جزء عم يستنبط علومًا، يجد علومًا يدرکها بفطرته؛ لأن القرآن فيه أشياء واضحة، قال ابن عباس -رضي الله عنه-: (في القرآن ما لا يعذر أحد بجهله)، فتجد الطفل وهو يقرأ يؤمن بالآخرة، ويؤمن بمشاهد الآخرة في جزء عم، ويؤمن أن الذنوب مآلها: {ويل لكل همزة لمزة}، {أرأيت الذي يكذب بالدين}

* **فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ**، ما تمرُّ عبثًا على أبناء المسلمين، ولا ساقها الله في كتابه بهذه الصورة الجميلة الجليلة.

فهذه الآيات والأحاديث إذا مرّت على العالم يُنبّه على شيءٍ منها، أُمَّةُ الإسلام عندهم من العلم من قديم الزمن، ولا زالت أرقى الأمم ما اعتصمت بكتاب ربّها، واستنارت بما فيه من الدلائل والشواهد. فهو -رحمة الله- ينثر بعض الفوائد، لكنها ما دامت أنها من كتاب الله ومن سنة النبي -صلى الله عليه وسلّم- فهي فوائدٌ عزيزةٌ.

[الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافًا للأشعرية]، [إثبات الصفات]: لله -عزّ وجلّ-، فالله وصف نفسه بصفاتٍ، والأئمة من أهل السنة والجماعة آمنوا بهذه الصفات، وأثبتوها لله -عزّ وجلّ- ويثبتونها ما يجب على المسلم تجاه هذه الصفات، فجاءت نصوص الكتاب والسنة قواعد في صفات الله -عزّ وجلّ-، فبيّنت أنّ الله أعلم بما وصف وسمّى به نفسه، إذا جاء النص بالصفة يثبتها لله -عزّ وجلّ- في الكتاب أو في السنة فعليًا أن نعتقد ما جاء في الكتاب والسنة، ولا نأتي ونقول: (كيف؟!)

يقول الله -عزّ وجلّ-: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}**، فيقول: (لا، الله ما يكيّد، الكيد ما ينسب لله).

ويقول تعالى: **{وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**، فيقول: (المكر لا، لا ما ينسب لله)، الله أعلم بما وصف وسمّى به نفسه، هذه قاعدة، الله -عزّ وجلّ- أعلم، **{قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ}**، الله ما يعلم، الله يعلم ولا يعلم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فإذا أخبر عن نفسه بالصفات: أنه يرضى، أنه يحبّ، أنه يغضب، تثبتها لله -عزّ وجلّ-.

أهل السنة أثبتوا هذه الصفات، وبما دلّت عليه الأدلة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلّم- معتقدين أنّ الله أعلم بما وصف وسمّى به نفسه.

لما ترجمت كتب الفلاسفة، كان السلف الصالح من الصحابة والتابعون كلّهم يقرأون كتاب الله -عزّ وجلّ- بهذه اللغة العربية: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}**، ما عُرف عن صحابيٍّ أنه استشكل آية صفة، وجاء يسأل النبي -صلى الله عليه وسلّم- عنها، أبدًا، ما عُرف أنّ صحابيًّا جاء وسمع آية في كتاب الله -عزّ وجلّ-: **{وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**، وقال: (يا رسول الله، كيف الله يمكر؟ كيف الله خير الماكرين؟

{وَأَكِيدُ كَيْدًا}، قال: يا رسول الله، كيف؟)، هو عربيٌّ يعلمُ مدلولَ هذا اللفظ ودلالته، ما أشكلت عليهم؛ لأنهم أهلُ إيمانٍ وتصديقٍ وتسليمٍ.

إذا جاء النصُّ في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يثبتُ لله صفةً، نثبتُها، ونعتقدُ اعتقادًا جازمًا أَنَّ اللهَ أعلمُ بما وصف وسمى به نفسه.

ولذلك تجد حينما ناقش العلماءُ والأئمةُ من أهل السنة أهلَ الكلام وأهلَ السُّفسطة كانوا يدمغونهم بهذه الكلمة: أَنَّ اللهَ أعلمُ بما وصف وسمى به نفسه.

يقولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ))، فيقولُ: (لا، ما ينزلُ، كيف هذا؟)، الله أوحى إلى نبيِّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وجاء بالنصِّ الصَّحيحِ عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه ينزلُ، فيقولُ: (لا، لا، تنزلُ رحمته)، هل أنت أعلمُ من الله، وأعلمُ من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟!!

إذَا الصِّفَةُ جاءت في الكتاب والسنة بلسانٍ عربيٍّ، قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، فقالوا: (لا، استوى أي استولى)، وأولُوا الاستواء، وأنكروا الفوقية والغلوَ لله -عَزَّ وَجَلَّ-، تعالى الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأما أهلُ السُّنة قالوا: (استوى استواءٌ يليقُ بجلاله وعظمته على ظاهر اللُّغة العربية)، وفي اللُّغة العربية أَنَّ استوى: علا وارتفع، فأثبتوا صفةَ الغلوَ لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وجاءت النصوصُ: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ}، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، كُلُّهَا نصوصٌ واضحةٌ، كان الصَّحابةُ ومن بعدهم كُلُّهم على هذا الصفاء والنقاء.

ترجمت كتبُ الفلاسفة، فجاء الشُّرُّ والبلاءُ على الأُمَّة، وأخرج النَّاسُ من الفطرة السليمة إلى هذه السُّفسطات والجدليات.

وأعجبُ من هذا وأغربُ يقولُ لك: (إذا كانت قطعياً في العقائد نقبلُها، أمّا إذا كانت ظنيّةً ما نقبلُها)، سبحانَ الله! ما الذي دلَّ على هذا التَّفريق؟! السُّنَّةُ هي السُّنَّةُ، وإن جاءتنا بنقلِ العدلِ الثِّقة الضَّابط عن مثله من أوله إلى منتهاه، آمنا بها وصدّقنا بها.

كونهاً أحاداً، أو القطعيّات والظنيّات، والسفسطة والجدل هذا ما كان يعرفه الصَّحابةُ، هل كان الصَّحابةُ لما جاء أبو هريرة يقولُ لهم: سمعتُ رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ))، هل قالوا: (يا أبا هريرة، نريدُ منك عدداً

يبلغ حدَّ التواتر سمع من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذه المقالة، هل قالوا له ذلك؟ هل قال التابعون لأبي هريرة: (اثننا معك من الصَّحابة بعددٍ)، حتى نعرف هذه القاعدة الفاسدة، هذه كُلُّها لا يلتفت الموفق لها ولا يعبأ بها.

وأعجب من هذا وأغرب: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعث رسله إلى ملوك الأرض، إلى ملك الروم، وإلى ملك الفرس: ((أسلم تسلم، أسلم يؤتكَ الله أجركَ مرَّتين، فإن تولَّيتَ فإنما عليك إثمُ الأريسيين))، وبعثها إلى المقوقس، بعث رجلاً واحداً، بعثه بماذا؟ بالعقيدة وبأصل العقيدة وبأصل الدِّين، واكتفى بهذا الواحد لإقامة الحجة على هؤلاء ومن وراءهم، ((فإن تولَّيتَ فاعلم أَنَّهُ عَلَيْكَ إثمُ الأريسيين)): أي من وراك من الضُّعفاء، أقامها عليهم برجلٍ واحدٍ، دحية الكلبي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ومن بعثه معه، سبحان الله! هذه عقيدة وأصل الدِّين.

إذا السفسطة والجدلُ العقيمُ هذا جاء بالبلاء، هذا كُلُّه ردُّ لشيءٍ ثابتٍ عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، خبرٌ يصحُّ عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بإثبات الصفة لله -عَزَّ وَجَلَّ-، يقولون: (آحاد، ولا نقبل الآحاد في الصفات)، ونحن نقبل الآحاد في الصفات كما نقبل المتواتر، ونؤمن بهذا كما نؤمن، سبحان الله! أنت تقفُ بين يديه، وتقول بالآحاد نعمل في العبادات والمعاملات، ولا نعمل في العقيدة، طيب أنت تقفُ بين يدي الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وتستحل أن تكبر، وتحكم أن الصلاة فاسدةٌ وصحيحةٌ لمن قرأ الفاتحة ومن تركها، وثبَّي أنه يركع وينحني، وأنه يسجد، وأنه يقول في ركوعه، يقول: كُلُّها بأحاديث آحاد، منذ أن يصبح وهو يعبد الله ويتعبد لله -عَزَّ وَجَلَّ- في عباداتٍ ومعاملاتٍ بأحاديث آحاد، ثم يقول: (الآحاد ليس بحجة!) {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، حتى نعلم أن هناك -نَسأل الله السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- انطماس في البصيرة.

الآحاد حجة في العقيدة، ويُوجب العلم، ويُفيد العلم، ونعمل بهذا العلم، كما ندين الله بها في صلاتنا وزكاتنا وصومنا وحجنا وعُمَرَتنا، وندين الله أن هذا دينٌ بخبر آحادٍ.

فالصَّحابة -رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ- واقفون بين يدي الله في الصلاة التي هي الشُّغل، وأيُّ الشُّغل؟! يقول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا))، جاءهم الرجل وهم في إحدى صلاة العشي الظهر أو العصر، وقال: ((أشهدُ أَنِّي صَلَّيْتُ مع النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَبْلَ الْكَعْبَةِ))، الإمام ومن وراءهم من المصلِّين تحوَّلوا في صلاتهم، فتحوَّل الرِّجالُ كما في الصحيحين مكانَ النِّساء، والنِّساءُ مكانَ الرِّجال، وأتموا صلاتهم، هل قالوا: (لا، هذا آحاد)؟

طيب أنت تدين الله في داخل الصلاة، تحولوا من قِبَلَةٍ إلى قِبَلَةٍ، وداخل عبادة. هذه كلها سفسطة وجدل، نحن نتقرب إلى الله، ونعبد الله، وندين الله بالعقيدة بأحاديث الآحاد، سواء جاءت بصفات الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأثبتت لله صفته، أو أثبتت لله حكمًا في عبادة أو معاملة. ثم تجد أن السلف الصالح -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- من الصحابة والتابعين كانوا يعتقدون هذه الآيات، ويثبتون لله ما أثبت لنفسه، وجاء مذهب السلف الصالح وسطًا بين الإفراط والتفريط. بين الإفراط في الإثبات، فالمشبهة أفرطوا في الإثبات، ولذلك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: ((إِيَّاكُمْ وَالْعُلُوَّ))، فتجد الواحد منهم -أَعُوذُ بِاللَّهِ- يقول: (الله يد كيدي) -نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ-، يقول: (إِنَّ لله يدًا كيدي، إِنَّ لله سمعًا كسمعي)، يُشَبِّهُهُ اللَّهُ بنفسه، هذه المشبهة بالغت في الإثبات فشبهوا الله بخلقه.

وهناك مَنْ بالغ في التَّقْي، وهو مذهب التَّعْطِيل، قالوا: (أبدًا، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر)، تعالى الله عما يقولون، الله يقول: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، يقول: (سميع، لكنه سميع بلا سمع، بصير بلا بصر).

فجاء أئمة العلم وأهل السنة وسطًا بين الإفراط والتفريط، الإفراط في الإثبات، وهم المشبهة الذين يعبدون وثنًا، والإفراط في التَّقْي والتعطيل الذين يعبدون عَدَمًا، (سميع بلا سمع، بصير بلا بصر)، ولذلك قال الأئمة ومنهم شيخ الإسلام قال: (المشبهة يعبدون وثنًا، والمعطلة يعبدون عَدَمًا)، لكن أهل السنة والجماعة والمذهب الحق أثبت لله ما أثبت لنفسه، ما أوَّل ولا عَطَّل ولا شبَّه ولا مثَّل، التَّأْوِيلُ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْطِيلِ، أنت لما تقول له: إِنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صحَّ عنه: ((أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ))، قال: (تنزل رحمته، ما ينزل)، انظر ضرب من التعطيل.

إذَا لَابَدَّ أَنْ نَعْتَقَدَ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَمَا جَاءَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ دُونَ تَشْبِيهِ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْوَسْطُ وَالْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ دُونَ إِفْرَاطٍ فِي الْإِثْبَاتِ، وَدُونَ إِفْرَاطٍ فِي النَّفْيِ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: (التَّأْوِيلُ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْطِيلِ)، فَإِذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ))، نَحْنُ نَعْتَقِدُ هَذِهِ الصِّفَةَ لِلَّهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ لِسَانُ الْعَرَبِ، لَكِنْ كَيْفَ يَنْزِلُ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ، الْكِيفِيَّةُ، وَمِنْ هُنَا، جَاءَ مَذْهَبُهُمْ وَسْطًا بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ.

لا يمكن لنا أن نخوض في الكيفية؛ لأنه قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وقال: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، وقال سبحانه: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}، ولذلك هذه كلها قواعد في باب الأسماء والصفات.

فلما بين الله في كتابه، وبين على لسان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصفات، فنؤمن بها، ونثبتها، ونمرها كما جاءت، فقد جاءت بلسان عربي دالة على ذلك المدلول، فنؤمن بهذا المدلول باللسان، وأمّا الكيفية فلا نخوض فيها، ولذلك لما دخل الرجل على الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- وقال: كيف استوى؟ والله تعالى يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: كيف استوى؟ قال -رحمه الله-: (الاستواء معلوم)، معلوم ثبوته في الكتاب والسنة: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}. ثانيًا: معلوم معناه في لسان العرب، ما نقول: (استوى بمعنى استولى)، فقولهم: (استوى بمعنى استولى) صرف للفظ عن ظاهرة الراجح إلى معنى مرجوح لا يليق بالله؛ لأنّ (استولى) تستلزم أنّ هناك خصمًا لله حاشاه، وأنّ الله -عزّ وجلّ- نازع غيره فاستولى.

أمّا (استوى): علا وارتفع في لغة العرب، هذا لسان العرب، وكان الرجل على فطرته، والصحابة على فطرتهم، ولذلك أئمة الإسلام -نسأل الله أن يجزئهم عنا وعن المسلمين خير الجزاء- نقلوا لنا مذهب الصحابة في الصفاء والنقاء، كان الصحابة والتابعون كلهم على هذا الصفاء والنقاء، يقرأون القرآن: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

لما قالوا: (ما ثبت لله الكيد، لا، لا، الكيد والمكر هذه من صفات المخلوق مذمومة)، انظروا كيف، قال الأئمة: (الله ورسوله أعلم، الله أعلم بما وصف وسمى به نفسه).

جوابهم: أنّ الكيد من المخلوق واقع في غير موقعه، فهو مذموم، والكيد من الخالق واقع في موقعه، فهو محمود، ولذلك لا يشبهه الله بخلقه، هم فُروا من شيء، فوقعوا في أسوء منه.

ولذلك لزوم هذا الأصل، الله قال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}، ولذلك المؤمن الموحّد لما ثبت صفة الكيد لله على ما جاء في النصّ، يعتقّد عظمة الله، ما يجد نقصًا -سبحانه وتعالى-، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}، ويهاب الله، يحسّ بعظمته -سبحانه وتعالى-، الكيد من المخلوق صفة نقص؛ لأنه واقع في غير موقعه، المكر من المخلوق صفة نقص؛ لأنه واقع في غير موقعه، ولذلك قال تعالى: {فَلَا تَضُرُّوهُ لِلَّهِ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، إنّ الله يعلم،

ونحن لا نعلم، فلا نضرب له الأمثال، يقول: (لا، الكيد صفة نقص)، نقول: في المخلوق، ونحن لا نشبه الخالق بالمخلوق.

فإذا هذه الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة كان أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين -رحمهم الله- يؤمنون بها ويثبتونها، ولذلك حتى الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- لما ذكر له أن الرجل يقول: (أن الله ليس في السماء)، قال: (كافر)، الإمام أبو حنيفة نفسه، لماذا؟ لأن النص دال على هذا، النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بجارية أراد مولاه أن يعتقها، انظروا لما يأتي البعض ويقول: (يا أخي، أنت تدرس العقيدة، وتشوش على الناس بهذه الأشياء)، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- امتحن بالعقيدة جارية على فطرتها، ((قال: أين الله؟ قالت: في السماء))، يدل على أن الصحابة على الفطرة، ومع أنها جارية، وكلنا عبيد لله -عز وجل-، وكلنا ضعفاء، وكلنا حقراء إلا أن يرحمنا الله برحمته، إلا أنها على فطرتها، وأجابت بالفطرة.

وهذا الحديث حديث الجارية يشرحه العلماء من وجوه، لكنه من أصدق الدلائل على أن الصحابة كانوا يقرأون الكتاب والسنة سالمين من السفسة والجدل في العقيدة، كانوا على فطرتهم، ولذلك لما أخبر الله عن نفسه: أنه يغضب، وأنه يرضى، ما جاء أحد من الصحابة يقول: (يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كيف يغضب الله؟)، ما قالوا هذا، ولا سألوا عنه، الغضب له معنى في اللغة، فاعتقدوه وآمنوا به وصدّقوه، ما عُرف في أزمنة الصحابة ولا التابعين الخوض حتى جاء واصل بن عطاء، وجاء المعتزلة، وجاء الجهمية، وجاء البلاء على الأمة، قطع الله عن المسلمين دبرهم. والأدهى والأمر: أن هؤلاء معتقدون أنهم أعلم.

وقد ذكرنا أن مذهب الصحابة والتابعين وأئمة العلم ودواوين العلم كانوا على الفطرة على الأصل متفقين لا مختلفين على ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، إثبات الصفات لله -عز وجل-، حتى تُرجمت كتب الفلاسفة، وجاءت بالشتر العظيم والبلاء الوخيم.

والأدهى والأمر: أن بعضهم يقول من المتأخرين ممن اغترّ بكلام هؤلاء: (إن مذهب السلف أسلم، وأن مذهب هؤلاء أعلم وأحكم).

وأما نحن نقول: (مذهب السلف الصالح والتابعين لهم بإحسان أسلم وأعلم وأحكم)؛ لأنه مبني على هدي وعلى سنة، وعلى حال الصحابة -رضوان الله عليهم-، فهو أسلم؛ لأنه لا إفراط فيه ولا تفريط.

وهو أعلم؛ لأنه مبني على النص والتسليم بالنص، وعدم العبث بالنصوص في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهو أحكم؛ لأنه مستنبط من الكتاب الذي أُحكمت آياته.

السلف الصالح من الصحابة والتابعين في مباحث الأسماء والصفات لزموا النص في الكتاب والسنة، ما زادوا ولا نقصوا، إذا جاء الخبر وصح بصفة أثبتوها، ما أولوا، ولا عطلوا، ولا شبَّهوا، ولا مثَّلوا، ولا ضربوا لله الأمثال، هذا هو المذهب الأسلم والأعلم والأحكم.

ولذلك تجد من أُبْتلي بعلم الكلام وعلم السفسطة -نسأل الله السلامة والعافية- يُتكلَى في عقيدته، ويُتكلَى في قوله وما يكون من منطوقه، تجد التناقض، حتى إنهم يقول لك: (إذا جاءت الصفة موهمة)، لاحظ: (إذا جاءت موهمة أولها)، يعني أصبح تأويلها إليك، ما هذا العبث؟!

السلف قالوا: (إذا جاءت الصفة عن الله وعن رسوله آمن بها وصدقها)، تقف بين يدي الله يوم القيامة، ويسألك: (لم اعتقدت لله يدًا؟)، تقول: (قلت في كتابك: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، أثبت يا ربِّ لنفسك اليدَ، وأثبتها كما أثبتتها في كتابك)، هل هذا أفضل؟ أو تقول: (لأنَّ اليدَ صفةُ المخلوق، والمخلوق لا يُشَبَّه بالمخلوق)؟ والسفسطة هذه، أين الدليل؟ ماذا ينفعك إذا جئت بهذه الجدليات العقيمة؟ إذا جئت تعتقد الصفة وقلت: (يا ربِّ، هذا في كتابك، وهذا فيما صحَّ عن رسولك -عليه الصلاة والسلام-)، أيُّها أسلم؟ وأيُّها أنجى للعبد يوم القيامة، لما يأتي ويعتقد أنَّ التزولَ لله، ويسأله الله -عزَّ وجلَّ- عن ذلك؟ قال: (أثبت؛ قال رسولك -صلى الله عليه وسلم-: ((ينزل ربنا))، فاعتقدت التزولَ لك، باللسان العربي الذي أخبرنا به نبينا -عليه الصلاة والسلام-)، هذا مذهب السلامة والحكمة.

والعجيب: أنَّ هؤلاء يغترُّون بأنفسهم، تجد البعض يذهب إلى كتب علم الكلام منتقصة أهل السنة والعلماء: أنهم بسطاء، وأنَّ علمهم بسيط، وأمَّا هؤلاء عندهم التأصيل والتفريع، والله ثمَّ والله وأنا في حرم الله ورسوله، ما عُرف عن أحدٍ، ولا أعلم أحدًا من أئمة الهدى ومن العلماء الراسخين في العلم يقول: (إنَّ علم الكلام وعلم السفسطة والجدل زاد صاحبه إيمانًا أو ورعًا أو خوفًا أو خشيةً لله)، ما عُرف هذا، والذي يجدُ خلافَ كلامي فليأتني به، ما عُرف أنه يزيد ورعًا، والعلم هو الخشية: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، ولذلك تجد أئمة السلف أثبتوا الصفة خوفًا من الله، وخشيةً من الله

-عَزَّ وَجَلَّ-؛ لَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، فأقول: (ليس له يد)؟! الله يثبت لنفسه وأنفي -أَعُوذُ بِاللَّهِ-؟!

العلم هو الخشية، والعلم الحق هو علم الرهبة: {لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}، قال الله في كتابه أُؤْمِنُ وَأَصْدَقُ وَأُثْبِتُ، ما عليّ من الذي يقولونه، ما عليّ من الذي يقول: (هؤلاء مجسّمة، هؤلاء جعلوا لله جهة)، ما عليّ، عليّ النصّ، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ}، أثبت لله صفة الفوقيّة، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} أثبت له صفة العلوّ، علوّ القهر، علوّ القدرة، علوّ الذات؛ لأنّ الله قال في كتابه وقال رسوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد.